

## القول المكشوف

في الأدبين العربي والإنجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

لعل الأدب الإنجليزي أشد الآداب تحفظاً في المقال والالتزاماً للوقار وعزوفاً عن الجحون ، فبينه وبين الأدبين الفرنسي والرومي ، مثلاً ، بون كبير في هذا المجال . وبمكس ذلك كان الأدب العربي الذي وسع من صريح العبارة عن ماجن القول وسفسافه ما لا يسيغه العصر الحالي ؛ بل لم يكن يسيغه فضلاء العصر الذي قيل فيه ، وذلك راجع للظروف المحيطة بالأدبين

فساء الوقار والتسامي التي تعلقو الأدب الإنجليزي راجعة إلى ثلاثة عوامل رئيسية متشابهة هي : طبيعة الإنجليزية الهادئة ، والتريبة الإنجليزية التي تجعل عرضها الأول كبح نزوات الناشئ الجائعة وإلزامه ضبط النفس ، وثالث العوامل هو الرأي العام القوي

والرأي العام نتيجة لامالين الأولين ، ونتيجة أيضاً للنظام السياسي الديمقراطي الذي يجعل الأمر للشعب في كل مناحي الحياة ، وهذا الرأي العام محافظ حريص على تقاليد الفضيلة يشهر الحرب على من يهجم بخدشها ، وهو من القوة بحيث لا يجسر كاتب أو شاعر أو ناشر على تمديه وإلا كان عليه النرم المادي والأدبي ، وقد نأر بالسهرتين التجاسرين على الدين والتقاليد أمثال بيرون وشلي فاضطروهم إلى متادرة البلاد ولم يشفع لهم عنده نبوغهم ولا ما نالوه في غير إنجلترا من الصيت البعيد .

أما الأدب العربي فخالطه عوامل اجتماعية وسياسية جعلت اجتثاث جرىء القول وبذيثه منه متمرداً : فهو قد ورث جفوة بداوته الأولى ، وسرى إليه الفساد الذي تبع الفتوح واختلاط الأعاجم والموالي ، وشجعت الحكومة الفردية المطلقة سريان هُجر القول بدل أن تدرأه ، فكان من الخلفاء والأمراء من حرصوا على المهاجة بين الشعراء ، وأغضوا عن مجونهم ما داموا مشغولين به عن متاواة سلطانهم ، وأجازوا من وقعوا في خصومهم بقبيح الهجاء

فالحكومة الفردية المستبدة قد حالت دون قيام رأي عام يقف للخارجين على تقاليد المرصاد ، أو هي لم تدع لتلك الرأي العام السلطة أو الهيبة الكافية لأن ينضح عن تقاليد ، بل كثيراً ما حَتَّ الشعراء الماجنين من غضبه . وهكذا الحكومة القائمة على أساس فاسد لا يسها - لشورها بضغف مركزها - إلا متاصرة عوامل الفساد التي ترى مصلحة لها في بقائها ، أو خلقت تلك العوامل

ولقد كان في الدولة الاسلامية عامل جليل الأهمية لو بق تأثيره فاشيا لكان الأدب العربي أرق الآداب على الاطلاق لفظا وأعفها قصداً ، وأعظمها تساميا : ألا وهو الدين الاسلامي الذي يحض على مكارم الأخلاق والذي كانت الدولة تقوم على أساس منه ، ويتضح أثره في عصر الخلفاء الراشدين ، وما كان من تأديب الخطيئة وردعه عن أعراض الناس

ولكن هذا العامل السامى الجليل تُنومى في غمار السياسة ، وجرفه تيار التكالب على الملك والسلطة ، فلم يمد الخليفة أو الأمير بغضب إلا أن يناله الشاعر يذانه ، فيشار بن برد الذي ضج عليه القوم ودهاؤم عهداً طويلاً من تجوره واقذاعه ظل مُعاقٍ ولم يمس بسوء حتى تمادت به جسارته إلى عرض الخليفة ذاته . أما ما دام الشاعر متفيا غضب الحاكم أو مجتلبا رضاه فلا ضير عليه أن يري باللؤم أنصار الرسول أو يفضل إبليس على آدم ، أو يهكم بيوم الحشر ، أو يتفاخر بشرب الخمر ، أو يتلوى بسب الرجال وقذف المحصنات ، أو يتباهى بالنسل إلى الخلدور في غلس الظلام

هكذا ضم الأدب العربي بجانب سائى الأغراض وشريف الأقوال وكريم الحكم والأمثال سقطاً من القول قوامه الأباحية والاستهتار ، وقام من الأدباء من سدماوا الناس في عقينتهم وتقاليدهم ونالوا من أعراضهم وسعهم ، وأودعوا الأدب من خسيس الأقوال ووضع الأغراض ما ينافى مقاسد الأدب وسمو الفن بالنفس الانسانية . ولما لم يكن للناس طاصم من شرم من رأى طام أو حكومة ساهرة عمداً من استطلاع منهم بحمول أو مكيدة إلى الذب عن نفسه بنفسه ، وهكذا لقي النبي وابن الرومي حتفهما على أيدي هجويهما

وهناك عامل اجتماعي لا بد أنه كان من عوامل ذبوع هُجر

أنفسهم غلوم في مدح أصحاب النوال ، بل أغربوا في المفارقة فجموا بين الدحين في القصيدة الواحدة ، ونسبوا لأنفسهم الحكمة والشجاعة والمجد وشرف المحدث ، وأجلسوا أنفسهم بجانب الشمس والبدور ، وأوسعوا الدهر والحظ والناس ذمًا بقدر ما أوسعوا أنفسهم مدحًا ، وتلك جميعا لعمد الحق بضائع النوكى !

خربة القول — أو قل إباحته — فاشية في الأدب العربي القديم ، بينما التحفظ ميزة الأدب الإنجليزي ، وربما تقالى الرأي العام الإنجليزي في تحفظه وتشبثه بما يليق وحججه على ما لا يليق الخوض فيه من حديث ، فناهض مفكرين كان الخير الانساني أو النفع الملى كل مقصدهم ، كما كان موقفه من أوائل الداعين الى ضبط النسل مثلاً ، إلا أنه لا يلبث أن يخفف من غلوائه حين يتبين له شرف المقصد وفائدة الدعوة

ولئن سمحت الحرية الفكرية الراسخة التي تمتع بها الفلاسفة والمعلماء في الدول الاسلامية فما كذلك الحرية التي استباحها المهجاء من الأدباء ، فالأولى حرية تساعد تقدم الفكر وترقى العلم ، والثانية تؤدي الى انحطاط الخلق وتضرب في دعائم المجتمع ؛ الأولى حرية فكرية نافعة ، والثانية إباحية خلقية ضارة . والأدب يرسم للأمة مثلاً علياً تتوخاها ، فإذا تمادى في تصوير ذم النوازع فإنه يهبط بالنفوس الى مستوى منحط لا تريد عنه ارتفاعاً

وللأدب المكشوف في العصر الحديث دعائه الذين يحضون على اطراح النفاق الذي تفرضه التقاليد وتصوير الطباع على حقاقتها ، على أن هناك فرقا بين المذهب الحديث وبين ما كان قاشياً في الأدب العربي القديم : فأنصار هذا المذهب ذوو مبادئهم مقتنون برجائته يرون أن الأدب يؤدي مهمته ويرقى الأخلاق الانسانية بوصف دخالها ومظاهرها دون تمويه ، أما الآخرون فلم يكن لهم مبدأ ولا غاية سوى إرضاء الشهوات والنزوات وعلى الخلق الكريم الغناء

وهيات أن يخلو المجتمع الإنجليزي أو غيره من آثار تلك الفاسد التي أفصح الأدباء المتقدمون في التعبير عنها ، ولكن ما لا يقبله ذلك المجتمع هو الجاهرة بذلك والفاخرة والتجاسر على تقاليد المجتمع التي ارتضاها لنفسه وقامت عليها أسسه ، وإيفال ذلك في علم الأدب الذي تمويه بطون الكتب وترويه الأجيال ويُقصد منه الى السمو بالانسانية قمرى أبو العز

القول في الأدب العربي ، بل في المجتمع العربي ذاته : ألا وهو انسحاب المرأة من المجتمع شيئاً فشيئاً ، فقعد الأدب باحتجازها وراء الحجاب عاملَ تجملٍ وتوقُّرٍ وتعفُّفٍ في اللفظ والفرض ، وصار الاخفاش من الذبوع بحيث لم يتردد كاتبان فخلان يمثلان مجتمعهما تمثيلاً كبيراً : وهما البديع والحري ، في حشد مقاماتهما بمقنع السباب ؛ بل خصصاً لذلك مقامات بذاتها

وأظهر ما يكون المجون والفحش في الشعر في أبواب الهجاء والخمرات والنسيب الخليع والتشبيب بالفلان . وقد أوغل بعض الشعراء في هذه الأبواب إيقالاً لا يكاد يصدقه العقل . ومن العجيب أن الطريقة التقليدية التي يجرى عليها تاريخ الأدب العربي لا تزال تمتد من فحول العربية شعراء ولم يكدهم يؤثر عنهم مقال في سوى هذه الأغراض الحيوانية . ومن البديهي أنه مهما تفنن الناظم وابتدع في وصف الخمر وتصوير الشهوات فلن يرفعه ذلك الى مصاف الشعراء العظام ، إذ الشعر الرفيع لا يقاس بحسن الديباجة وبراعة المعنى فحسب بل بشرف النرض أيضاً

فداوود بن أبي ويمة وبشار وابن هاني إن هي إلا استهتار واستسلام للشهوات وتمح بالغازي بحكمة الديباجة بارعة النظم متقوعة الأوزان والتوقاي ، تتخللها حكمة شاردة أو مثل سائر ليس للناظم فيه إلا فضل التأنيق في إعادة صوغه ، فإذا كان هؤلاء وأشباهم من فحول الأدب العربي فما أقصره عن بلوغ المثل الأعلى للأدب الراق !

وما يفترق الأدبان العربي والإنجليزي في استجازته من أبواب القول — وإن كان بمنجى من الفحش — الفخر ، الذي لا يسيئه الأدب الإنجليزي بحال ، على حين قد زخر الأدب العربي بما قيل فيه وعداً باباً من أبواب الشعراء التي تظهر فيها براعة الشاعر وتكمل بها منزلته . فالذوق الإنجليزي لا يسيخ أن يُرْمَى إنسان بما يتخيله في نفسه من مكارم وعظائم ، بل من أول ما تطمح إليه الترية الإنجليزية — كما سبق الاماع — أن تكبح في الناشئ زعة الزهو والمعجب ، وليس أمقت في المجتمع الإنجليزي ممن يدل بنفسه . ولم يكن الشعر العربي في أول أمره يعرف الفخر بالنفس ، وإنما كان فيه نخر بالقبيلة والمصيبة ولا بأس بهذا ، ثم استباح بعض الشعراء فيما استباحوا لأنفسهم التمدح بالنفس صدقاً وادعاءً ، وغلوا في مدح